مجلة المحترف لعلوم الرياضة و العلوم الانسانية و الاجتماعية

المجلد (10) العدد (03) السنة (2023)
الصفحة 126-142

الفردانية قيمة عُليا للذّات أم تلبيّة آنيّة للرّغبات؟

Individualism: A Higher Value of Self or Immediate Fulfillment of Desires?

نريمان كوسة[*1]، مليكة عقون[2]

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر– الجزائر،
koussa.narimane@univ-mascara.dz
مخبر الدراسات الفلسفية وقضايا الإنسان والمجتمع في الجزائر – جامعة ابن خلدون – تيارت

[2] جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر– الجزائر،
malika.agoune@univ-mascara.dz

معلومات البحث

تاريخ الاستلام:10/07/2023
تاريخ القبول:19/12/2023

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

الملخص:

تعتبر الفردانيّة بوصفها شكلًا فلسفيًّا مُعاصرًا يعكس الجوانب المتعددة للإنسان الفائق، وقد جاءت الفردانيّة بوَجهَين: أحدهما يُمثِّلها بصفتها قيمةً عُليا تُساهم في تطوير الذّات والحفاظ على صحَّتها وكرامتها الشّخصيّة، والوجه الآخر يحقّق التّلاقي بين الفردانيّة والنّرجسيّة ويمثّلهما في علاقةٍ وطيدةٍ ترسم صورة الإنسان الاستهلاكي ذو البُعد الواحد والأنانيّة المتوحّشة، وقد هدفت دراستنا للبحث في الاشكالية التي تسعى لمعرفة الفردانيّة كمذهب جاءت لتردّ الاعتبار لكرامة الإنسان الحقيقيّة وقيمة ذاته العُليا أم أنّها مُجرّد تلبية الرّغبات الآنيّة وأهواء النّفس الخفيّة؟ بمعنى أخص الانسان الفرداني المعاصر الى أين؟، وهذا ما يجعلنا نبحث لنحقق نتائج ذات أبعاد عميقة وتساؤلات مُستَجدّة تُعنى بقضايا فلسفيّة واجتماعية مهمّة تحمل في طيّاتها إشكالاتٍ راهِنة.

الكلمات المفتاحية: الفردانيّة، القيم، الذّات، الرغبة، النرجسية.

ABSTRACT

Individualism is considered a contemporary philosophical concept that reflects the multifaceted aspects of the exceptional human being. Individualism has two facets: one represents it as a supreme value that contributes to the development of the self and the preservation of personal health and dignity. The other facet involves the intersection of individualism and narcissism, portraying them in a close relationship that depicts the consumptive, one-dimensional individual and the savage selfishness. Our study aims to explore the issue seeking to determine whether individualism is a doctrine that has emerged to uphold the dignity of the true human being and the value of their higher self, or is it merely the fulfillment of immediate desires and hidden egoistic whims? In other words, where is the contemporary individualistic human heading? This is what drives us to search for results with deep dimensions and emerging questions that address important philosophical and social issues carrying current challenges within them.

Keywords: Individualism, values, self, desire, Narcissism.

* المؤلف المرسل.

. مقدمة:

الإنسان المعاصِر بطبيعته وفطرته مُفرِط في الشّراهة والاستهلاك، حيث يشعر بالانتماء إلى كل ما يروي ظمأ ذاته ويُغذّي مُتطلّباتها الخاصّة. تدفّقت هذه السّلوكات والعقليّة المستقلّة من رحِم نُدوبٍ وتشوّهات سلطويّة عانت منها المجتمعات المعاصرة قبلًا في كلّ الجوانب والأبعاد بما فيها الجانب السيّاسي، الديني، الاجتماعي... فتزاوج التمرّد مع المطالبة بالحريّة الشّخصيّة ليُنجِبا لنا الفردانيّة "L'individualisme" في إطار فلسفة "الأنا المركزيّة"، بعيدًا عن كلّ القيود والالتزامات التي لفظت أنفاسها الأخيرة على يد التّنظيم الذّاتي الفرداني. إنّها لحظة الأُفول والغروب الأبدي للمسؤولية اتجاه الآخر أو الشعور بالخوف منه، بل هيّ لحظة بزوغ وشروق الفردانيّة التي تعتبر العجلة المحرّكة للمجتمعات الاستهلاكيّة.

يستدعي هذا التحول الذي يمثل الانتقال من عصر الواجب إلى عصر ما بعد الواجب، ومن عصر الأخلاق إلى عصر ما بعد الأخلاق لطرح الإشكال الآتي: هل الفردانيّة كمذهب جاءت لتردّ الاعتبار لكرامة الإنسان الحقيقيّة وقيمة ذاته العُليا أم أنّها مُجرّد تلبيّة الرّغبات الآنيّة وأهواء النّفس الخفيّة؟ بمعنى أخص الانسان الفرداني المعاصر إلى أين؟ بعد وصول المجتمعات المعاصرة إلى ذروة "الاكتفاء الذاتي" ومحاولة الوصول لأعلى درجات الحُريّة الشّخصيّة، ما مصير الفعل التواصلي والبنية الاجتماعيّة؟ إنّنا نروم من وراء هذا البحث إزاحة اللّبس المحيط بقضيّة يتناولها ويتداولها كلّ مهتمّ بشؤون الرّاهن، ألا وهيّ "الفردانيّة"، بخاصّة وأنّها من مؤشرات وصِفات هذا العصر. وهنا بالضبط تتمثل أهميّة بحثنا القصوى، خصوصًا وأنّ الهدف منه إثارة إشكالات معاصرة سنعمل على تحويلها إلى دراسات وحلول واقعيّة مستقبلًا، من خلال منهجيّة سلسة ومضبوطة لها علاقة بما يحدث على أرض الواقع، وذلك لنساهم نحن كباحثين بشكل أو بآخر في الحدّ من الفوضى المنظّمة والاضطراب الأخلاقي الذي يعيشه العالم بمختلف ربوعه اليوم.

2. مفاهيم الدراسة:

1.2. الفردانية L'individualisme:

إن الإنسان مُرفق بالتّناقض في القول والتّضاد في الفِعل منذ القدم، في بعض الأحيان يكون اجتماعيًّا حدّ التُّخمة، مُنطويًّا تحت جناح الجماعة ومُطبّقا لأوامرها، وفي أحيان أخرى يكون مُتمرّدًا على الغير مُتفرّدًا بذاته، باحثًا عن حُريّته اللامُتناهيّة، لذلك فالفردانيّة ليست بِفعل جديد أو فكرة حديثة النّشأة أو الولادة، بل كانت تطفو وتغرق بين الفينة والأخرى، إلّا أنّها كمصطلح معترف به ضمن سلسلة التعاريف والمفاهيم الحديثة لم يظهر إلا "في عشرات السنين الأخيرة بالتّدريج"(**مقالات في الفردانية، ص40**) وذلك راجع لعوامل وأسباب تاريخية سابقة عاشها العالم الغربي بخاصة تحمل عنوان: الضغط، الترهيب والظلام الكنسي الدامس.

يتبيّن لنا من خلال هذا المفتتح التّاريخي، أن الفردانية كفكرة أو كسلوك كانت مريحة في الإنسان منذ القِدم، لكن بروزها كمصطلح مضبوط الدلالة لم يكن إلّا حديثًا، فماهي الفردانية وأين كانت أبرز توهّجاتها واتجاهاتها؟

مِن المعلوم أنّ فكرة الفردانيّة تفرّعت جذورها عبر كلّ الأقطار وبين كلّ الأعمار، فصارت موضة العصر وموضوعه، وهي تعني في مقصودها أن الفرد هو أساس كلّ حقيقة وجودية، والاعتراف بحقوقه واجب مشروع مع ضمان حريّته

واستقلاليته عن كلّ أنواع السلطة، وتعتبر قيمة الفرد أعلى وأغلى من أيّ قيمة مؤسسة أخرى، وللفردانيّة أشكال مختلفة في مجالات مُتعددة منها ما هو ديني وما هو فلسفي وما هو سياسي واجتماعي والاتجاه الأخلاقي والاقتصادي وكل ما يدور في هذا القبيل، والملاحظ أنّه في كل مرحلة من عُمر التّاريخ يبرز جانب من هذه الجوانب. **(حسن، 2004، ص ص25–36)**

يترتّب على ما سبق ذكره عدّة أمور وإشارات، كلها تدلّ على ميلاد عقليّة جديدة لمجتمعات تمارس سيّاسة تطليق كل ما هو إلزامي من عقائد ومعتقدات وثقافات ومعهودات، لتعقد القران مع سيّاسة " الأنا المركزيّة" التي تمنح للفرد حريّته المطلقة وتجعله يمارس ما يروق له وما يثير اهتماماته الشخصية، حتى لو تعارض أو تنافى ذلك مع القواعد الاجتماعية المتعارف عليها.

لحدّ كتابة هذه الأسطر، تبدو مقاصد الفردانيّة كمفهوم واضحة وبريئة، حيث تحتوي على ضرب من التمرّد والثورة على التّعسف والاكراه مع محاولة استعادة الحرية الإنسانيّة، للمحافظة على خصوصيات الفرد والعمل على تطويرها وتنميّتها، وذلك لتحقيق الإشباع الذاتي والرّاحة النفسيّة، التي بدورها ستتكفل فيما بعد بصناعة مجتمعات هادئة وهانئة، تتوق إلى الاستقرار والسلام، وتتميز بالوعي والإدراك.

يبدو أن رسالة الفردانيّة قُدّمت بصورة مُرحّب بها، خاصّة وأنّها استُخدِمت كأداة سلوكيّة لإنقاذ الإنسان الغربي على سبيل الحصر من أزمات اغتراب وغربة صعبة. أيّ فردانيّة في القرن العشرين وما بعده.

مر مفهوم الفردانية بفترات تاريخية مختلفة جعلته يحمل مضامين متعددة عبر كل حقبة وهذا ما أدى به إلى دخول تاريخ الفلسفة كاستشكال يستدعي ضرورة النظر فيه، وهذا ما سنكشف عنه في بحثنا لاحقا.

2.2. النرجسية Narsicissme:

في عصر المتعيّة وسط هذه الفوضى المنظّمة، أصبح الإنسان يتصرّف بتصرّفات نرجسيّة في حياته اليوميّة، غير مبالٍ بمواقف أو آراء المجتمع، فما هي النّرجسيّة وماهي سماتها؟ النّرجسيّة ليس مفهومًا جديدًا أو مُعاصِرًا، بل تعود جذور قصّته إلى ما قبل الميلاد، حيث الأسطورة التي تسرد لنا قصّة الفتى العاشق لذاته حدّ الشهوة، والذي كان ينظر لنفسه ويتغزل بجمالية صورته في النهر التي اغترّ بها وأراد لمسها حتى سقط في الماء ويُقال أن الآلهة حوّلته آنذاك إلى زهرة نرجس.**(دوكونانك، 2004، ص ص65–66)**

تدفع هذه القصة القارئ إلى فضول أكثر لمعرفة المزيد عن النرجسيّة وحال الشخص النّرجسيّ، مؤكد ذلك لأن هذه القضيّة هي حديث العصر وموضته أيضا، لذلك أولت مختلف التخصصات على غرار الفلسفة وعلم النفس أهمية بالغة لتتبع حركات هذا المفهوم ومدى فاعليته في الفرد والمجتمع.

سلّط المحلل النفساني سيغموند فرويد الضوء على مفهوم النرجسية عندما قدّم في عام 1911 شرحًا مُفصّلًا عنها ودراسة تطبيقيّة مطولة وعميقة، فاعتبرها تتمّة للأنانية، أي غريزة الأنا، وحملت النرجسيّة عند فرويد دلالات، تقتصر على الانحراف وحالات النكوص وحتى الأمراض العضوية والأعراض الجانبية الأخرى.**(بيلاغرانبر، 2000، ص10)**

من خلال الطرح السابق، يتضح أن معنى النرجسية عند فرويد يمثل قضية مرضية تؤثر على سلوك الإنسان وتعاملاته سواء مع نفسه أو مع الآخرين، وليس فرويد فقط هو الذي حلل المفهوم بهذا المنظور، بل هناك الفيلسوف وعالم النفس الألماني إريك فروم حيث اعتبر هو الآخر النرجسية ولع المرء بنفسه، وأنّ هذا الولع الشديد هو أعظم الذنوب، لأنّ النّرجسي عندما يُتيّم بنفسه ويعشقها حدّ الهوس، ستمنعه من حبّ الآخرين، حيث تجعله الأنانيّة أعمى وعدوانيّا.(**فروم، 2007، ص164**)

إذن، النرجسية باختصار هي "عبادة للذات(...) وحُبّ مُفرط للباطن وللحياة بذاتها." (**لالاند، د.س، ص1118**)

يعتبر الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي جيل ليبوفتسكي Gilles lipovetsky والذي له نصيب كبير من بحثنا أن النرجسية بمثابة اللامبالاة المرتخيّة اتجاه كل مايمثّل المجتمع والآخر.(**ليبوفتسكي، 2017، ص15**)

وقد أرجع ليبوفتسكي سبب ظهور النرجسية في الواقع المعاصر إلى الشخصنة.(**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص58**)

هنا يظهر لنا أن النرجسية ليست سلوكا يقتصر على الإنسان الغربي فقط، بل القضيّة مشتركة بين كل العوالم، بما أن النرجسي هو ذلك الهائم والذائب في عشق نفسه، لدرجة أنه يرى العالم برمته في حوزته، حتى صار يطمح ويطمع في الخلود الأبدي لذلك يضيف ليبوفتسكي هنا، أن الخوف الحديث من التقدم في السن وكذلك الخوف من الموت سببه ومكونه هو النرجسية الجديدة. (**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص65**)

3. فردانية مقابل فردانية:

1.3. لحظة البزوغ (The Moment of Dawn):

بعد النّكسات التي عاشها الإنسان الغربي خاصة، اتُّخِذت الفردانيّة كملاذ للتخلص من مختلف القيود والإكراهات، و الإمضاء على تبنّي فكرة الاستقلالية التامة للذات في اتخاذ القرارات جملة وتفصيلًا.

بعد معاناة الإنسانية من مبدأ "الفيضية" holisme وهي الأيديولوجيا التي تبرز الكلية الاجتماعية وتهمل أو تخضع الفرد الإنساني".(**دومون، 2006، ص364**)

جاءت لحظة الاستفراغ والقطيعة مع الماضي الجمعي، وبزغت لحظة بناء الذات بلمسة فرديّة تماما، في عصر الحداثة الفائقة Hyper modernité من أراد أن يبسط سلطانه فليبسطه على نفسه أوّلا ويعمل على تشريفها وضبطها والتّحكم في زمام أمورها بعيدا عن يد الجماعة و جملة الأوامر الخارجية.

الإنسان المعاصر قطع عهدًا أن تكون الرحلة فردية تمامًا، وذلك من خلال العمل على تكوين ذاته تكوينا قيّاديًّا للظهور بأبهى حلة والعمل في أحسن وأرقى الأماكن والمستويات، أين لايتعب ولا يتم استبعاده أو استعباده.

الأنا تنافس الأنا المقابلة لها في العصر الراهن من أجل تعمير السيرة الذاتية وتفخيمها وتضخميها بالزخم التكويني والمعرفي والمهاراتي، وتعلم فنّ القيادة لا للسيادة في كل المواقف والأحوال.

"انتهى عصر الواجب البارد اللاشخصي والمتحفظ، هذا زمن الشغف بالابتكار والتجديد ومشاعر الحركية و"حماسة" التواصل المنفتح" (**جيل ليبوفتسكي، 2018، ص133**)

الفرد المعاصر يعيش لحظة الرفاه والمتعية وهي مزيج بين الديناميكية والمرونة، ويحاول التماشي وتحقيق متطلبات العصر ليكون أكثر شهرة وطلبية واستهلاكا، إنها الرغبة في التغيير على المستوى الفردي والمنافسة بعقلية الفلسفة البرغماتيّة والعقيدة الليبيرالية.

هذا على مستوى الجانب العملي والمهاراتي، ونختصره في الشق المعنوي، كذلك عملت الفردانية على سقي ثمرة الذات بالقيمة العليا من خلال اتسام الفرد المعاصر بشغف المحافظة على البنية المورفولوجية الجسدية، من خلال ممارسة الرياضة واستهلاك افضل الماركات وأجودها مقابل دفع أموال طائلة على إطلالة واحدة تلفت الأنظار. لم يعد الفرد المعاصر يرتكب الجرائم ضد ذاته، بل يمارس مايتماشى مع هذه الأخيرة فقط، لا يجلدها لأجل الآخرين بل يؤنسها ويؤسسها، وهذا مايسمى بالخروج عن دائرة القطيع وتقدير الذات تقديرا يليق بمقامها كهِبة إنسانيّة، قابلة للتغيّر والتميّز.

عندما نحلل مضامين إشكالات الفلسفة الاجتماعية نجد أن الانسان في آونة مضت يعتز بانتمائه إلى الجماعة في الخطابات والأفعال واليوم نجده يخاطب بالأنا من كل جانب حتى الممارسات صارت تتسم بطابع فردي يحقق الافتخار بالذات الواحدة.

هنا الفرد في حالة استعراض وانخراط دائمة مع نفسه، يحاول إظهار كل مميزاته وحوافزه الخاصة، وإبراز شخصيته بكل إيجابياتها. (**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص68**)

2.3. تحقيق الوجود وصناعة القرار (Decision-making):

يُعتبر فعل القرار القوة المحركة للقيام بإرادة معيّنة، والفردانية جعلت الإنسان المعاصر صانع قرار لأنه بطبيعة الحال يتمحور حول نفسه ويبحث عن صحتها، ويسعى لتحقيق الاستقلالية التي تجعله يشعر بالانتماء إلى الأصل الأوّلي وهو الذات.

بالطبع، جديّة أخذ القرار لا تأتي إلا بعد رحلة طويلة من التكوين الذاتي والفردي، مع هجر كل أمر يتسبب في أذيّة النفس أو خيبتها.

من هنا، فإنّ قوى وطاقات الترشيد الإنساني تكمن فيه وليس في العالم الخارجي، بل تكمن في فردانيته ومدى قدرته على التحكم في أهواء نفسه الخفيّة ومحاولة تعويض هذه الأخيرة بمهارات تجعله فردًا متفرّدًا وفاعِلا، والدليل على ذلك أن "هناك إرتباط بين ضعف تقدير الذات والسلوكات المدمرة كتناول الكحوليات وتعاطي المخدرات والاضطرابات الغذائية والانتحار...".(**ريزنر، 2005، ص10**)

إن الصّلاح في حقيقته ضرب من التوازن الذي تشترك في الرّوح والنّفس معًا وهنا يظهر الوجه المشرّف للفردانيّة، التي تبرز للإنسان قيمته ككائن عاقل وأنّ وجوده مستحق ومحقوق على هذه الأرض، يستحق السلام والمحبّة والتّقدير وحمل وسام التميز والإبداع، والخروج عن الحالات المألوفة التي نراها بشكل كبير عند العامّة من الناس.

إنّ التحليل الفلسفي لظاهرة الفردانية يؤكد أنّ هذه الأخيرة جزء من الثقافة الفائقة، ثقافة لا تؤمن بالواجب ولاتعترف به مجددا، فبعد تحررها من الالتزامات المفروضة صارت هذه الثقافة تركز على تحقيق حاجات وحل مشكلات وصراعات فرديّة ورفع التحديات بغية تسوية المتاعب التي تواجه الحياة الشخصية.(**باومان، 2011، ص20**)

من خلال الطرح السابق نتساءل: هل مصلحة الفرد أولى على مصلحة المجتمع؟

في الألفيات الفارطة كانت مصلحة الجماعة أولى على مصلحة الفرد، حتى أن هذا الأخير يذوب ويتذاوب في الجماعة دون فرض رؤيته أو رأيه الخاص، حتى ظهرت الفردانية كدين جديد للإنسان الغربي المعاصر، فتراها جسّدت وعزّزت الذات الإنسانية ومنحتها حقّ الحُرية والانفراد بالرأي و المبادئ دون الالتفات لمواضعات المجتمع والجماعات.

كل واحد صار يطمح للوصول إلى هدف قيادة ذاته والتصرف فيها كما يحلو له، في حدود مايعود عليه بالمنفعة طبعا، ومادام الفرد يسعى لنفع ذاته وتطويرها وتحقيق مصلحته الخاصة، فإنه تلقائيا سيعود بالنفع على المجتمع، ومن الأمثلة التي يمكن تقديمها كشاهد أمثل على الدّور الدقيق الذي تقوم به الفردانية لتحقيق مصلحة الفرد والمجتمع على حد سواء، هو ما أقر به الفيلسوف جيل ليبوفتسكي عن العمل "الذي يحفز الشغف الفرداني بالاستقلالية وتحقيق الذات من أجل تحقيق أكبر لأهداف تنافسية الشركات.".(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص134**)

للرأسمالية دور فعّال في نسيج هذه العقلية التنافسية، لخلق الجودة والتميز وإضفاء ملامح جديدة ومشروعات مبتكرة، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط بل على كل الأصعدة جملة وتفصيلًا، "فإنّ الكلمة المفتاح لم تعد أن تظهر غنيّا ولكن أن تظهر شابًّا".(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص133**)

بمعنى، شاب في أفكارك وإبداعك وبنيتك المورفولوجية، وكل الجوانب التي تجعلك دائم العطاء والجمالية، وذلك لا يتحقق إلّا "بتطوير مؤهلات القوة، والثبات في الإرادة ونشر آليات جديدة للاجبار الذاتي وتنمية التحكم في الذات."(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص135**)

بعد هذا التطواف في الجوانب الخيّرة للفردانية، وبعد أن حقّقت المجتمعات الغربية الاكتفاء الذاتي ووصل الإنسان الفائق إلى ماوصل إليه من خرقٍ للطبيعة المعتادة عن طريق التطورات الرهيبة التي حققتها التقنية فصار تحسين النسل مسألة حرية شخصية و الذكاء الاصطناعي موازنة للكفاءات، والتحول الجنسي رغبة ذاتية، هل يمكننا القول أن العالم الغربي متجه إلى مابعد الإنسانية posthumanisme؟

هل هي لحظة أفول الفردانية كقيمة عُليا؟ ماذا عن المقدس الروحي هل لفظ أنفاسه على يد المقدس المادي؟

يُعتبر فعل القرار القوة المحركة للقيام بإرادة معيّنة، والفردانية جعلت الإنسان المعاصر صانع قرار لأنه بطبيعة الحال يتمحور حول نفسه ويبحث عن صحتها، ويسعى لتحقيق الاستقلالية التي تجعله يشعر بالانتماء إلى الأصل الأوّلي وهو الذات.

بالطبع، جديّة أخذ القرار لا تأتي إلا بعد رحلة طويلة من التكوين الذاتي والفردي، مع هجر كل أمر يتسبب في أذيّة النفس أو خيبتها.

من هنا، فإنّ قوى وطاقات الترشيد الإنساني تكمن فيه وليس في العالم الخارجي، بل تكمن في فردانيته ومدى قدرته على التحكم في أهواء نفسه الخفيّة ومحاولة تعويض هذه الأخيرة بمهارات تجعله فردًا متفرّدًا وفاعِلا، والدليل على ذلك أن "هناك إرتباط بين ضعف تقدير الذات والسلوكات المدمرة كتناول الكحوليات وتعاطي المخدرات والاضطرابات الغذائية والانتحار..."**(ريزنر، مرجع سابق، ص10)**

إن الصّلاح في حقيقته ضرب من التوازن الذي تشترك في الرّوح والنّفس معًا وهنا يظهر الوجه المشرّف للفردانيّة، التي تبرز للإنسان قيمته ككائن عاقل وأنّ وجوده مستحق ومحقوق على هذه الأرض، يستحق السلام والمحبّة والتّقدير وحمل وسام التميز والإبداع، والخروج عن الحالات المألوفة التي نراها بشكل كبير عند العامّة من الناس.

إنّ التحليل الفلسفي لظاهرة الفردانية يؤكد أنّ هذه الأخيرة جزء من الثقافة الفائقة، ثقافة لا تؤمن بالواجب ولاتعترف به مجددا، فبعد تحررها من الالتزامات المفروضة صارت هذه الثقافة تركز على تحقيق حاجات وحل مشكلات وصراعات فرديّة ورفع التحديات بغية تسوية المتاعب التي تواجه الحياة الشخصية.**(باومان، مرجع سابق، ص20)**

من خلال الطرح السابق نتساءل: هل مصلحة الفرد أولى على مصلحة المجتمع؟

في الألفيات الفارطة كانت مصلحة الجماعة أولى على مصلحة الفرد، حتى أن هذا الأخير يذوب ويتذاوب في الجماعة دون فرض رؤيته أو رأيه الخاص، حتى ظهرت الفردانية كدين جديد للإنسان الغربي المعاصر، فتراها جسّدت وعزّزت الذات الإنسانية ومنحتها حقّ الحُرية والانفراد بالرأي و المبادئ دون الالتفات لمواضعات المجتمع والجماعات.

كل واحد صار يطمح للوصول إلى هدف قيادة ذاته والتصرف فيها كما يحلو له، في حدود مايعود عليه بالمنفعة طبعا، ومادام الفرد يسعى لنفع ذاته وتطويرها وتحقيق مصلحته الخاصة، فإنه تلقائيا سيعود بالنفع على المجتمع، ومن الأمثلة التي يمكن تقديمها كشاهد أمثل على الدّور الدقيق الذي تقوم به الفردانية لتحقيق مصلحة الفرد والمجتمع على حد سواء، هو ما أقر به الفيلسوف جيل ليبوفتسكي عن العمل"الذي يحفز الشغف الفرداني بالاستقلالية وتحقيق الذات من أجل تحقيق أكبر لأهداف تنافسية الشركات." **(جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص134)**

للرأسمالية دور فعّال في نسيج هذه العقلية التنافسية، لخلق الجودة والتميز وإضفاء ملامح جديدة ومشروعات مبتكرة، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط بل على كل الأصعدة جملة وتفصيلًا، "فإنّ الكلمة المفتاح لم تعد أن بمعنى، شاب في أفكارك وإبداعك و بنيتك المورفولوجية، وكل الجوانب التي تجعلك دائم العطاء والجمالية، وذلك لا يتحقق إلّا "بتطوير

مؤهلات القوة، والثبات في الإرادة ونشر آليات جديدة للاجبار الذاتي وتنمية التحكم في الذات." (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص135**)

بعد هذا التطواف في الجوانب الخيّرة للفردانية، وبعد أن حقّقت المجتمعات الغربية الاكتفاء الذاتي ووصل الإنسان الفائق إلى ماوصل إليه من خرقٍ للطبيعة المعتادة عن طريق التطورات الرهيبة التي حققتها التقنية فصار تحسين النسل مسألة حرية شخصية و الذكاء الاصطناعي موازنة للكفاءات، والتحول الجنسي رغبة ذاتية، هل يمكننا القول أن العالم الغربي متجه إلى مابعد الإنسانية posthumanisme؟

هل هي لحظة أفول الفردانية كقيمة عُليا؟ ماذا عن المقدس الروحي هل لفظ أنفاسه على يد المقدس المادي؟

4. الفردانية تُبرِم عَقدًا مع النرجسية:

1.4. لحظة الأفول (The Moment of Sunset):

تطرقنا سابقًا للظروف التي تسببت في ظهور الفردانية، والظرف الرئيس هو رعاية الصالح الفردي، هل هذا يعني أن الفردانية أعلنت عن لحظة أفولها؟

ربما المصالح الفردية جعلت الحلقة النرجسيّة تنمو بوتيرة متسارعة حيث أنّ الهدف واحد، ألا وهوّ تغذية المصلحة الذاتية والالتفات إلى المصلحة الخاصة وممارسة الحريات الفردية بكل أريحية بعيدا عن كل الضغوطات، لكن هذا النشاط الذاتي زاد كثيرا عن حدّه وصار يتخبط في أعاصير من الخواء واللاقيمة فكما عبّر عنه الفيلسوف ليبوفتسكي قائلا: "كلما زادت الذاتية كلما كان الأثر متخفيا وفارغا" (**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص17**)

وعلى هذا الأساس نطرح الإشكال الآتي:

هل تحولت الفردانية إلى أنانية؟ إن الفردانية لديها ارتباطات وثيقة بالنرجسية من خلال توسعة دائرة الحقوق الفردية ممّا ساعد على بروز الاضطرابات والسلوكات النفسية للإنسان المعاصر، لذلك صار حبّ الظهور ضرورة مُلحّة عنده، حتى لو كان ذلك دون جدوى أو هدف مفيد فنجد "إمكانية ورغبة في التعبير بغض النظر عن طبيعة الخطاب بالإضافة إلى الحق والمتعة النرجسية في التعبير من أجل لاشيء." (**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص17**)

مادام الفرد المعاصر يسعى جاهدا لفرض ذاته، وإظهارها في كل المناسبات فهو بهذا يحاول طمس الآخر بطريقة أو بأخرى، وهذا مافتح دوامة اصطدامات المصالح الاجتماعية، التي خلقت صراعات جديدة، لأن النرجسية استفحلت وأخذت أبعادها الكبيرة في العالم المعاصر.

في العصر الراهن، تفاصيل المعيش تسودها فترة ثقافة الذات بكل أوهامها حيث أنها فترة مختلفة تماما عن هموم الذات العزيزة على قلب الفلسفات السابقة أبرزها الرواقية وفلسفة ميشال فوكو.(**غودار، 2019، ص ص90–91**)

يتعيّن أن المبالغة في تمجيد الذات قاد المجتمعات المعاصرة إلى جنون العظمة، والأرجح أن هذا الهمّ الإنساني أتى من الفراغ الداخلي الرهيب الذي تعيشه تلك الذوات، لذلك طغت موضة المبالغة في تحسين الصورة أمام الغير، عن طريق التلاعب بالميكانيزمات وتضخيم الأفعال التافهة التي لاجدوى لها وفي الغالب تجد النرجسي يضخم أمورا مستهلكة ولا دخل للإبداع أو الانجاز فيها.

لذلك دوما تجد مرضى النرجسية لا يعملون على إقصاء الآخر وعدم النظر إليه والاحتكاك به، إلا للمصلحة فالآخر بالنسبة للإنسان النرجسي وسيلة لا غاية (**دومون، مرجع سابق، ص56**) تقضى بها الحاجات عن طريق الاستغلال ثم القذف بها بعيدا دون مراعاة العواقب أو المشاعر الإنسانية.

هنا، نرى الفردانية في صورتها النرجسية، عندما تغزو المصلحة الفردية ولا يرى الواحد منّا بعد ذلك إلا نفسه، وكأنّ المقولة الميكيافيلية "الغاية تبرّر الوسيلة" تُطبّق جملة وتفصيلًا؛ إنّها لحظة شرعنة العنف بطريقة ناعمة وهادئة.

الكلّ يريد أن يكون الأفضل، الكلّ يريد أن يمارس حريّته بعيدا عن القيود حتى لو كانت هذه الحرية كاسرة للقواعد والمبادئ الأولى، هنا التساؤل المطروح ماذا بعد كل هذه السلوكات؟

"لقد تحول المجتمع شيئا فشيئا إلى حلبة لعرض أنواتنا". (**غودار، مرجع سابق، ص29**)

إنه عصر الأنا بامتياز، "عصر الآخر كعائق"، فاليوم الإنسان الفائق إلى جانب الشراهة والاستهلاك الذي يعيشه والترف نجده يعيش العياء الاجتماعي، التملص من المسؤوليات والواجبات اتجاه الآخر كونها تتسبب في استنزاف طاقته فصار يبحث عن الراحة اللامتناهيّة.

وقد مثل هذا الوصف الفيلسوف وعالم الاجتماع البولندي زيغمونت باومان zygumnt Bauman في كتابه الحداثة السائلة قائلا: "أن تشعر بالحرية يعني أنك لاتعاني أيّة عقبات أو عوائق أو مقاومة أو أيّة موانع أخرى للحركة التي تريدها أو يمكن أن تتصور أنك ترغب في القيام بها في المستقبل." (**زيغمونت، 2016، ص60**)

إلى حد ما، لابد للإنسان أن يعيش حريته لكن ماذا لو انتهكت بسبب هذه الحرية حريات الآخرين وكُسرت المبادئ الطبيعية والإنسانية؟

نشهد في هذا العصر سيولة للحرية وفردانية بسلوكات نرجسية تدّعي التفرد والتميز، هذا لأنها بريق العصر، لامست نفوس أغلبها هشة وتعاني من مختلف العقد والتراكمات الداخلية التي جعلتها تنفلت ولا تصدق أن الحرية طالتها.

حيث صارت تمارس خباياها بكل علنية وشفافية تحت مدعى الاختلاف، لذلك نجد ليبوفتسكي يتنبأ بسيادة الفردانية اللامسؤولة المتحررة والمنفكة عن كل القواعد والإملاءات ستتوجه نحو اكتساب مواقع في قطاعات أوسع أكثر فأكثر في مجتمعاتنا.(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص208**)

هذه اللحظة التي سبق التطرق إليها ويعني هذا، أن الفردانية دخلت مرحلة شقية جديدة من مراحلها في كل المجالات خاصة القيميّة منها.

"هذا ما أشاد به "جان سيرو" بأن "الفردانية دخلت بالفعل مرحلة جديدة من مغامراتها التاريخية ولحظتها فائقة الحداثة".(**سيرو، 2012، ص208**)

في الجانب الأخلاقي نحن اليوم نشهد عصر مابعد الأخلاق حيث صار الانسان مُركّزا على عيش أيام حياته بالإدمان على الاستهلاك، ومن هنا نلاحظ تهاوي القيّم وانكسار المعنى.

صار كل شيء مبني على المنفعة والمصلحة الشخصية القائمة على متطلبات ومبادئ معينة، نُحِش المعنى الحقيقي للضمير الجمعي، صار المعيار الأسمى هو تحقيق الرغبة الفردية والمصلحة الشخصية حتى لو كانت على حساب الآخرين.

إنّ موضوع هذه المساءلة ولّد حداثة جديدة تتزامن بطبيعة الحال مع حضارة الرغبة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، التي تحمل في نيّتها منطقًا ذاتيًا يعمل بمبدأ إرضاء الذات أكثر من تقدير وإعجاب الآخرين. (**Gilles, 2013, p. 51**)

يبدو أن الحقوق الذاتية والفردية قد استفحلت وتمكنت في العصر الحداثي الفائق، الشراهة واللّذّة، الآنية واللّحظيّة، سلوكات متعجرفة والمقدس الروحي تهاوى ليحل محله المقدس المادي والنفعي الملموس، فأغلب الأفراد اليوم يعيشون على مبدأ الراحة النفسية ولوكان ذلك على حساب القيم والأخلاق والدين، صار الأشخاص يستبدلون الديانات ويتخلون عن الأعراف، فقط، لأن هذا يتنافى مع مكنوناتهم الداخلية لذلك وضح ليبوفتسكي في مؤلفه "أفول الواجب" بأن العلاقة المسيطرة صارت من الذات إلى الذات فقط ولم تعد تحت رقابة أو وصاية الإلزامات المطلقة، فهي اليوم تجول بين تفاصيل الحقوق الذاتية وذلك هو الشعار الأجود تزيده الرغبة وعمل الصياغة والتطوير من النوع النرجسي.(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص92**)

يتبين إذن، أن زمن الأخلاق كمعيار قد ولّى ولم تعد له مكانة في عصر الحداثة الفائقة.

حيث كل شيء آني وأنوي، قابل للترك أو الاستهلاك، بعيدا عن أناشيد القيّم والمكارم، لذلك يتساءل باومان: "أي فرضية للأخلاق في عالم استهلاكي معولم؟".(**باومان ز.، 2016، ص53**)

مادامت الأنا في سباق مع الأنوات الأخرى وفي منافسة شديدة وشرسة من أجل اثبات الذات، ونيل المدح والعرفان في عصر مابعد الأخلاق الذي أطلق عليه ليبوفتسكي عصر "الفوضى المنظمة" (**جيل ليبوفتسكي ، 2018، ص17**)

هنا، يتبدى لنا أن العصر الحالي فيه طغيان الحقوق على حساب الواجبات، وموازاة لكل مرغوب متاح، لم تعد الثقافة اليوميّة ترتكز على ضرورات الواجب المفرطة، ولكن بالرّفاهيّة وديناميّات الحقوق الذاتية فقد تمّ التّوقف عن الاعتراف بالالتزام ليتمّ التعلّق بالنفس لا بشيء آخر غيرها (**Lipovetsky G. , 1992**)

مجموع ما سبق، لخصه ليبوفتسكي في بعض العبارات الواصفة لأفول القيم الأخلاقية وحلول الفردانية التي سماها "أخلاق من النوع الثالث لا تستمد نموذجها الأعلى من الأخلاق الدينية التقليدية ولا من الأخلاق الحديثة المأخوذة من الواجب العلماني القطعي والمتشدد". (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص13**)

عملت الحرية الفائضة في عصر ما بعد الأخلاق على تعزيز كيان الفرد الواحد على حساب الجماعة، الكثير مما أدى إلى دخول حيز الشخصنة، وصار تتبع الفعل الأخلاقي يخص الوحدة المتفردة بعد تطالع الأخلاق الفردية في المقدمة جسّم ليبوفتسكي "ما بعد الواجب بأنه الحق الفرداني في اللامبالاة بالآخرين". (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص60**)

هذه هي الثقافة الجديدة للحرية التي هي عامل فكك الروابط الاجتماعية (**Métayer, p41**)

2.4. الأسرة المؤقّتة (The temporary family):

بعد أن تغنى عصر الحداثة الفائقة بما بعد الواجب ومابعد الأخلاق وحمل شعار الفردانية والنرجسية فالأسرة كذلك تفككت أواصرها وصار تكوين هذه الأخيرة مبني على مصالح خاصة ومؤقتة، بما فيها اللذة هذا إن قامت وبنيت أصلا، لأن الفرد المعاصر صار يرى الأسرة عائق على مختلف أهدافه وتطلعاته الشخصية وذلك، لأن هذه الأخيرة تتعارض مع الأسرة التي تعتبر قيدا عند الكثير من الفلاسفة والمهتمين بالشأن الفكري منذ زمن بعيد أمثال باكونين وأندري جيد ماركس وغيرهم.

هل بقيت الأسرة مرفوضة بشكل قاطع أم أنّ قبولها ارتبط بشروط ضمن هذا العصر؟

تعرضت الأسرة إلى عديد الاتهامات التي سبق وتطرقنا إليها حتى صار إلغاؤها والتخلي عنها ضرورة حتمية فقد " كان الشباب الثّره إلى الحرية يعدّها مؤسسة للإخضاع مُشكّلا بذلك حركة متمردة على كيان يعيد انتاج علاقات للملكية والهيمنة القمعية." (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص174**)

تعرضت الأسرة للرفض كونها مؤسسة تبتزّ بالذكاء العاطفي، وتجعل الفرد في حلقة ضيّقة لايمارس قناعاته كما يشاء.

على سبيل المثال لا الحصر، نرى شخصا يعتنق عقيدة أخرى ويبيّن لأسرته أنّه يعتنق ما تعتقد به هذه الأخيرة، يحبّ ممارسة أفعال وأمور معينة ويتظاهر بالعكس أمام الأسرة.

لا يوجد التّخالف مع الأسرة في الأمور المعنويّة والرّوحيّة فقط، حتى الأمور الماديّة الخاصة بمتطلبات الحياة اليومية وفيها تخالف، مثلا الأكل الذي بدوره أصبح نشاطا يركز على التذوق والمعلومات والاختيارات، أصبحت الأذواق فردية تتبعا للمنتجات ذات الجودة العالية، ومن ثّم تقرير ما يؤكل وما لا يؤكل. (Gille lipovetsky, 2013, p403)

لم يتأقلم الإنسان الفائق مع هذا الوضع الذي تلقّه الواجبات والحياء اتجاه الأسرة، لأن "النظام الجديد يحتفل بزفاف الترف والفردانية الليبيرالية." (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص20**)

من الأجدر أن نشير هنا إلى ما تنبأ به كريستوفر لاش **Christopher lasch** حيث صرّح بأننا نعيش الآن فقط من أجل أنفسنا، دون الالتفات إلى بالتقاليد والأعراف السابقة، لذلك يرى لاش بأن المعنى التاريخي تم هجره وهُجِرت معه القيّم والمؤسسات الاجتماعية.(**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص55**)

من هذا المنطلق، يتبين لنا أن الأسرة تمّ هجرها تدخل ضمن حيز المؤسسات الاجتماعية والفئات الجماعية؛ اليوم الأسرة تشكل عائقا على الحريات وتُقيّد الأفراد بالمسؤوليات، فأغلب الأفراد المعاصرون يحبّون انجاب الأطفال والمتعة الزوجية والجنسية، لكن في المقابل يريدونها دون مسؤوليات أو معاناة يريدونها فقط من أجل المتعية والتسلية دون عقود أو واجبات معينة، فنحن نعيش زمن ما بعد الواجب.

الملاحظ هنا، أن فعل التواصل بين الإنسان الفائق المعاصر ومفهوم الأسرة التقليدي قد تمزق وصاله. اليوم قدسية الأسرة لم تبق كما هي حتى الجوهر الاجتماعي الذي كانت تحمله انقضى أمره.

الأسرة في راهننا من أجل أغراض جديدة وهذا مفترض ومنطقي خاصة وأن "الأنا أصبحت مفتتة لاتجاهات جزئية وفقا لعملية التقدم نفسها التي فجّرت الحياة الاجتماعية وحولتها إلى مجموعة جزئيات مشخصنة".(**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص61**)

منذ الإعلان عن ثقافة الشخصنة، حدثت عملية التفكك و طويّت صحيفة الأنا الجماعية، أعلنت النرجسية انتصارها إلى جانب الفردانية.

فالأسرة اليوم تلتئم وقت الأفراح وتهجر بعضها وقت المصائب والمصاعب، صار الافتخار بفخامة البيوت وكمية الاستهلاك والعناية الجسدية لأفراد الأسرة الواحدة،والبحث عن الجمال بلهفة وشغف، لكن ما إن تحل نكسة بذلك المنزل تتغير المشاعر فجأة، حتى العلاقات الأسرية صارت مبنية على المصالح: الاعتزاز بالنسب الأنيق، الغني، والخجل بالنسب الفقير أو سيء السمعة، الأبناء يستغلون مناصب ونفوذ آباءهم وأمهاتهم للوصول إلى غاياتهم بشتى الطرق والعكس صحيح.

في زمن ليس ببعيد كانت القدسية كلها للآباء والأمهات والأسرة كانت قيمة عليا للفردانية.

أشار ليبوفتسكي وبعد إقامة استبيانات ودراسات على أفراد المجتمع الفرنسي من مختلف الشرائح، بأن الثورة ضد الأسرة وعبارة "أيتها الأسر، إنني أكرهكن" التي أشاد بها أندري جيد لم تكن سوى صيحة مؤقتة، قوس احتجاجي تم إغلاقه وشباب اليوم يشيد بدور الأسرة في تكوين الأمان والراحة وبأن والديهم يؤدون أدوارهم بشكل جيد. (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص ص174–175**)

هل هذا يعني عودة الأسرة إلى قدسيتها الأولى خاصة وأننا في عصر يشيد بالفردانية والنرجسية؟

ينوه ليبوفتسكي في هذه النقطة ويؤكد، بأن اعادة الاعتبار للأسرة لا يعني أبدا إحياء الواجبات التقليدية، بل المجتمعات العصرية تحتفي بالأسرة على شاكلة وبطريقة خاصة بها وهي تطليق الواجبات والشروط والطاعة والخضوع، لم يعد تكوين الأسرة خارج إطار العقد الشرعي محظورا، بل صار أمرا عاديا يدخل ضمن الحريات والاختيارات الشخصية واللاتقييد، حيث أن تقديس الأسرة تم تفريغه من التوصيات الالزامية القديمة وهذا كله لصالح الإنجاز الحميم وحقوق الشخص الحر، فلا يمكن للفرد المعاصر أن يتقبل الإكراه والاجبار على أمر ما، فمن أراد أن ينفصل عن شريكه فله ذلك ومن أراد هجر أسرته فله ذلك، وقس على هذا... ومن أراد الاجهاض وتحديد النسل أو تحسينه ضمن آخر التطورات العلمية والتقنيات فله ذلك أيضا.(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص175**)

حان الوقت الذي نقول فيه عن "الأسرة انها أصبحت ترميما فردانيا، ومؤسسة تتفوق فيها الحقوق والرغبات الذاتية على الواجبات القطعية، كانت قيم الاستقلالية الفردية لمدة طويلة خاضعة لنظام المؤسسة الأسرية، لقد انتهى هذا العهد".(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص177**)

جاء زمن الاختيار والقرار الفردي الخالص، فقدت قيمة الأبوة والأمومة، في قضية أخرى بغض النظر إلى ماتطرقنا إليه سابقا، صار الأمر يحمل الكثير من التزييف ويمشي تحت قدرة التقنية، هل هذا يبشر بميلاد أسرة تقنية قريبا؟

اختيار المواصفات كأن الفرد المعاصر اليوم يبحث عن إكسير الحياة وقصة الخلود الأبدي.

الثقافة النيوفردانية واللبنة النرجسية قلّلت من احترام الأبناء لوالديهم، وقللت من تأديتهم لواجباتهم الكاملة بحجة الاستقلالية الذاتية حتى أننا "لم نعد نربي الأطفال ليشرفوا آباءهم ولكن ليكونوا سعداء." (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص179**)

ليست الأسرة فقط من تفردنت وتنرجست، بل شتى المجالات وهذا من خلال العولمة والسيادة الإعلامية والتكنولوجية، كل شيء في الواجهة، المرأة، الصورة، السينما، فقد الشأن العام حيويته وصار الانسحاب من المجموعات شيئا ملزوما وصفة من صفات العصر الفائق، انسحاب من السياسة والنقابات واختفاء الأمل الثوري والاحتجاج الطلابي، أصيبت الثقافة المضادة بالإعياء.(**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص55**)

عصر اليوم يشيد بالأنا وبالسعادة والبحث عن اللذة، متخليا عن المسؤوليات الاجتماعية التي من شأنها أن تطور الفضاء العام وتبني الحضارات والأمم.

الفرد المعاصر يبحث عن نشوته الذاتية، أصبحت "الأنا الانشغال المركزي ولايهم إذا تحطمت العلاقة، لأن الفرد بوسعه أن يغرق في ذاته، وبهذا تنجز النرجسية "أنسنة" غريبة عبر تعميق التفتت الاجتماعي".(**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص59**)

إن الإنسان الذي أفرزته ثقافة مابعد الأخلاق هو إنسان رحال وقد أصبح بدوره نموذجا ذهنيا تشيد به العوالم الأخرى وتساقطت أوراق الثبوتية الأخلاقية الأخيرة وأصبحت يوميات هذا الفرد المتعي تتغذى على أطباق الرفاهية وتم نزع التأثيم عن الأنانية تماما (**بلعقروز، 2020**)

3.4. المرأة الثالثة والغواية (The third woman and temptation):

حتى المرأة وأصبحت لا تبالي لما يقال عنها من قِبل المجتمع سمّاها جيل ليبوفتسكي المرأة العملاقة لها مبادئ متناقضة مع مامرّ، صارت تستعرض جمالها وتستمتع بالترف والرغبة الغالبة التي عدّها من أولوياتها خصوصا فيما يتعلق بإرضاء الذات ومحاولة صنع الشخصية الملهمة التي تصنع منها مثالا يحتذى به وقدوة للكثير من النساء من خلال الملابس والماكياج (**جيل ل، 2017، ص143**)

هـذه هـي النرجسـية بعينهـا، فلمـاذا مـثلا لا تحـاول المـرأة الثالثـة أن تكـون ملهمـة في الجانـب الفكـري والبنـائي للمجتمعات؟

بل تتوجه غالبا للإغراء والبريق الزائل، إنه عصر المقارنات بين هذه وتلك، كل المقارنات مركبة على أساس الجسد والجمال والمفاتن، لا على أساس الانتاج الفكري أو الأمومة لأن هذا ليس من ساكنات عصر مابعد الأخلاق، بل المقارنة تعتمد أساسا على المادة وبالخصوص بالجسد باعتباره قوة معترف بها. (**جيل ل، مرجع سابق، ص144**) إنه زمن الغواية والمرأة الخالدة.(**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص63**)

إنّها موضة الجنس في المرئيات والتعنت النرجسي والظهور باسم الفردانية والحرية الشخصية لفرض أفكار وقناعات على العامة وكل من يتابع ويشاهد من مختلف الأطوار والأعمار.

قدّم ليبوفتسكي أمثلة حيّة عن العاهرات اللائي صرن يتحدثن لوسائل الإعلام، ويطمحن لاعتراف المجتمع كما أن الممثلات الإباحيات حسبه تُشاركن في البرامج الحوارية وتعتلين مناصب سياسية وتنتخبن كنواب برلمانيات (**جيل ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص88**)

ربما هذا العصر الذي صار فيه التواصل الفرداني في شقه المريض سهلا لمحاكاة العالم عبر شاشات صغيرة كانت أو كبيرة فقد تلاقت الإباحية المشروعة والتطور التكنولوجي، فليس من الغريب إذن أن تجلس ممثلة إباحية في حصة إعلامية وتأخذ هاتفها لتلتقط لها صورة سيلفي Selfie، لأن هذا الأخير وقد تم تصنيفه تعبيرا عن إيروس في لحظة الفعل. (**غودار، مرجع سابق، ص131**)

جرت على غير العادة هذه التصرفات المغطاة باسم الانفتاح واحترام الاختلاف مؤخرا في إحدى الجامعات العالمية الشهيرة التي يضرب بها المثل في جودة التعليم والانضباط أن أتت بممثلة إباحية من الطراز الاحترافي المتجرد من كامل القيم والمبادئ المحتشمة، لتعتلي المنصة وتحاضر بكل ثقة مكان العديد من العلماء والحكماء الأجلاء.

استعراض إعلامي للأجساد وإيروس في الواجهة، سلوكات صبيانية تعلوها النرجسية وتطبعها الحرية الفردانية، هذا ما نشاهده ونشهده اليوم في المجتمعات المعاصرة.

هذا العصر آيروسي وجنسي بامتياز كما أكد عالم الاجتماع الأمريكي بيترين سوروكين pitrin sorokin الذي بحث عواقب الثورة الاجتماعية في أمريكا، أنه في القرن العشرين حل الإنسان الجنسي homo sexuel محل الإنسان المفكر homo sapiens وبحسب قول سوروكين فاليوم مانعيشه هو مرتبط بالجنون أو الولع الجنسي. (**شاستاكوف، 2010، ص269**)

الأمر يبدو واضحا لما تتبين أن هناك أهداف أخرى للفردانية خاصة لحظة تلاقيها مع النرجسية فصار الجميع يعبث.

كأن نرجس المهووس بنفسه اليوم يعمل بجدّ لتحرير الأنا من أجل مصيره العظيم المتمثل في الاستقلالية، وحبّ النفس بما فيه الكفاية حتى لا تتم الحاجة إلى الآخر. (**Gilles L, 1993, p77**)

لباب هذا، وإشكاله الرئيس أيّ خصوصية وأخلاق بعد كل هذه التصرفات الخارجة عن السيطرة هل يمكن أن يتعدى الأمر من نرجسية فردية إلى نرجسية جماعية؟ الأمر يتعلق دون شك بنرجسية جماعية، أصبح الذين يتشابهون في الأهداف والطبائع يجتمعون، وصارت للنرجسية لا تتميز بالاستبطان المتعي الذاتي وحسب، وإنما أيضا بالحاجة إلى الاجتماع بأشخاص مماثلين بل والمطالبة بحقوق جماعية جديدة، آباء المثليين جنسيا، المدمنين على الكحول، الأمهات السحاقيات، وهكذا، فصارت القضية جماعية ونتنبأ بأحزاب وجماعات متشابكة المصالح الغريبة من أجل فرض كينونتها ومطالبها.(**ليبوفتسكي، مرجع سابق، ص16**)

5. خاتمة:

من الضروري أن ندرك بأن الفردانية هي قضية معقدة وعميقة تحمل في طياتها توازناً حساساً بين تطوير الذات وتحقيق الرغبات الفردية، فهي تجمع بين الحاجة للنمو والازدهار الشخصي، وبين الوعي بأهمية الاحترام والاعتبار للآخرين والمجتمع، إن كانت الفردانية تُفهم وتُمارس بحكمة فإنها تمكّن الإنسان من تحقيق طموحاته الشخصية وتطوير ذاته بصورة إيجابية ومفيدة للمجتمع، ومع ذلك علينا أن لا ننسى أن الفردانية لا تجوز على حساب الآخرين أو على حساب قيم ومبادئ إنسانية أخرى لذا، يتعين علينا دائماً التفكير في مدى تأثير أفعالنا وقراراتنا على الآخرين والمجتمع بشكل عام، وأن نسعى للتوازن بين حقوقنا الفردية والمسؤوليات الاجتماعية بالاعتناء بذلك، يمكن للفردانية أن تكون قيمة عُليا للذات وفعالة في تحقيق السعادة والتطور الشخصي بطريقة مستدامة، وأبرز ما توصلنا إليه أن قضيّة الفردانية والتمحور على الذات من قضايا العصر الراهن المهمّة وجب الوقوف عليها وتحليل عمقها، كما أن المفارقة التي تحملها الفردانية تستدعي فتح دراسات وأبحاث تتشارك فيها مختلف تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبالتالي فإن نقطة تلاقي الفردانية والنرجسية خلقت إنسانا فائقا، لا يفكر إلا في الاستهلاك مع تهاوي الأخلاق على حساب الترف والمتعيّة يجعلنا نترك الموضوع مفتوحا بإشكال: هل حانت لحظة ما بعد الإنسانية؟، ومن خلال تحليلنا السابق نخلص إلى النتائج التالية:

- الفردانية كقيمة عُليا للذّات، تُعيد الاعتبار للإنسان وتجعله يشعر بالرضا.
- الفردانية وفي لحظة تحالفها مع النرجسية، خلخلت القيّم والمبادئ الأولى وأبرمت عقدا مُحكمًا شعاره "المابعديّات".
- إشكالية الفردانية اليوم لا تخصّ المجتمعات الغربية المعاصرة فقط، بل تُعنى بها كل المجتمعات بما فيها العربية.

ومن خلال الطرح السابق نقترح ما يلي:

- ضرورة الاهتمام بدراسة سلوكات الإنسان الفرداني ومتابعتها.
- الفردانية في شقّها الإيجابي والبنائي مكسب للفرد والمجتمع، شريطة التحكم فيها ومراقبة السلوكات والتوجهات.
- تحقيق التوازن بين مطالب الذات والأهواء والرغبات، لبناء إنسان سويّ غير مضطرب نفسيا ولا اجتماعيا.

6. قائمة المراجع:

1. باومان, زيغمونت، (2011)، الثقافة السائلة، ط1، (تر: ح. أ. جبر, الشبكة العربية للأبحاث، بيروت.
2. باومان, زيغمونت، (2016)، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ط1، تر: س. ا. الابراهيم, هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الامارات.
3. باومان، زيغمونت، (2016)، الحداثة السائلة، الإصدار 1، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.
4. بلعقروز, عبد الرزاق، (2020, 7 22)، ثقافة ما بعد الأخلاق. (م. م. الانساني, Intervieweur)
5. بيلاغرانبر، (2000)، النرجسية دراسات نفسية، تر: وجيه اسعد، منشورات وزارة الثقافة، سوريا.
6. جيل ليبوفتسكي, رو اليبت، (2017)، مملكة الموضة زوال متجدد، ط1، تر: د. مندور, المركز القومي للترجمة، القاهرة.
7. جيل ليبوفتسكي, رو اليبت، (2018)، الترف الخالد من عصر المقدس إلى زمان الماركات، ط1،تر: ا. مجدي, مركز نماء للبحوث و الدراسات، بيروت.
8. جيل ليبوفتسكي, رو اليبت، (2018)، المرأة الثالثة ديمومة الأنثوي و ثورته، ط1، تر: د. مندور, المركز القومي للترجمة، القاهرة.
9. دوكونانك, توما، (2004)، الجهل الجديد و مشكلة الثقافة، ط1، تر: م. القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان.
10. دومون, لويس، (2006)، مقالات في الفردانية منظور انثروبولوجي للايديولوجية الحديثة، ط1، تر: ب. ا. عردوكي, مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
11. ريزنر, رانجيت سينج مالهي، روبرت دابليو، (2005)، تعزيز تقدير الذات إعادة بناء وتنظيم نفسك للنجاح في الألفية الجديدة، مكتبة جرير، المملكة العربية السعودية.
12. سيرو, ليوفتشكي، جيل جان، (2012)، شاشة العالم- ثقافة، وسائل اعلام وسينما في عصر الحداثة الفائقة، ط1، تر: ر. صادق، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
13. شاستاكوف, فيا تشيسلاف، (2010)، الثقافة والإيروس فلسفة الحب والفن الأوروبي، ط1، تر: ن. ع. السود, دار المدى للثقافة، بيروت.
14. عبد الرحمان, طه، (2017)، دين الحياء من الفقه الإئتماري الى الفقه الإئتماني التحديات الأخلاقية لثورة الاعلام والاتصال، المؤسسة العربية للفكر والابداع، بيروت.
15. غودار, إلزا، (2019)، أنا أوسيلفي إذن أنا موجود تحولات الأنا في العصر الافتراضي، ط1، تر: س. بنكراد, المركز الثقافي للكتاب، بيروت.
16. فروم, إريك، (2007)، الانسان من أجل ذاته- بحث في سيكولوجية الأخلاق، ط1، تر: م. م. الهاشمي.
17. الكحلاني، حسن، (2004)، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، القاهرة.

18.لالاند, أندري، (د.س)، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خ. أ. خليل, منشورات عويدات، بيروت.
19.ليبوستكي، جيل، (2018)، أفول الواجب الأخلاق غير المؤلمة للأزمنة الديمقراطية الجديدة، ط1، تر: بشير عصام المراكشي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت.
20.ليبوفتسكي, جيل، (2017)، عصر الفراغ الفردانية المعاصرة وتحولات مابعد الحداثة، تر: ح. ادوخراز, مركز نماء للبحوث و الدراسات، بيروت.
21. Gille lipovetsky, j. s, (2013), L'esthétisation du monde, Gallimard, france
22. Gilles, L, (1993), l'ére du vide, Gallimard, France.
23. Gilles, L, (2013), Le bonheur paradoxal, Gallimard, france.
24. Lipovetsky, G, (1992), Le crépuscule du devoir, Gallimard, france
25. Métayer, M, (s.d.), la philosophie éthique enjeux au débat actuel, (éd. 1), Québec, Renouveau saint-laurent, canada.